

إنها قصة تراخى بها العهد ، وقعت أحداثها في ضيعة ضئيلة الشأن ، تكاد تنتهى بها تخوم العمران ...

كانت الحياة في هذه الضيعة تجري على الأساليب العتيقة في الفلاحة والادارة ، بيد أنها مع ذلك كانت قنوعاً بما تيسر لها من وسائل العيش ، فتوافر بذلك حظها من هناة وأمان .

عاشت الضيعة ترفرف عليها السكينة والطمأنينة ، يتأزر أهلها على المعاش ، وتصل بينهم وشائج مودة وإيلاف . فلا ضغائن مطوية ، ولا شقاق يفضى إلى فرقة وانقسام ...

قام على رأس هذه الضيعة السعيدة ناظر أربى على السبعين من عمره ، غل من قومه محل الأب من بنيه ، يضمهم الحنان والرحمة ، ولكنه يسوسهم بما تقتضيه الحكمة والحزم في عدل وإنصاف ...

وهو على الرغم من علو سنه جم النشاط ، متوقد الذهن ، يعيش حياة الفلاح ، ويقوم بعمله ، ولا يتميز في مطعمه وملبسه ومسكنه عن سائر سكان الضيعة ...

فأحبه قومه ، وأذعنوا له بالطوع ، وهابوا كلمته في أمره ونهيه . نهض الناظر بواجب منصبه معولاً على نفسه ، غير مفتقر إلى جمع من الكتبة والأعوان يحفون من حوله ، فاذا رغب في عون دعا إليه ارتجالاً بعض الرفاق ، فيبتدرونه ويعينونه في غير كلفة ولا تعقيد ... ومن ثم كان في غنية عن موظفين تناط بهم أعمال

وما كان الناظر بغافل عما تستمتع به الضيعة من هناة ، فكان يزهى بذلك بين الحين والحين ، ويزدد كلمته الخالدة :

— كل شئ يجري بالبركة !

آتت هذه البركة ثمراتها الطيبة في شيوخ الأمن واستتباب السكينة ، فلم يعكر صفو الضيعة أى حدث من الأحداث المروعة في عهد ذلك الناظر المبارك .

وحان يوم قضى فيه الرجل نحبه ، فتلفت الضيعة نعيه في ذهلة ووجوم ، ولكنها استلهمت في رزئها الكبير إيمانها العميق ، وودعت بموت هذا الناظر عهداً مذكوراً بالخير ، وتطلعت إلى عهد جديد لا تدرى مصيرها فيه ، مستسلمة إلى أنه ليس لحال دوام !

وصبحاً هبط الضيعة شاب في ميعة الصبا ، يرتدى الحلة الافرنجية ، ويحمل على رأسه القبعة المجنحة . . . فأقبل مفتول الساعد ، مرفوع الهامة ، مرهو الخطا ، مدلاً بما يتميز به عن هؤلاء الناس من كسب العلم والتحضر ، في يده سوط صغير يتلاعب به ذات اليمين ودات الشمال . . . وسرعان ما أعلن أنه الناظر الجديد !

فاحتشد إليه القوم ، رانية أبصارهم ، يتفحصونه في دهشة وعجب . . . ليس عهدهم بعيداً بناظر ضيعتهم الراحل . . . ولقد استقر في أذهانهم أن الناظر لا بد أن يكون على غراره : شيخ أشيب ، يعم على لده ، ويضع على منكبيه العباءة ، ويتخذ عصاه من أغصان الشجر . . . فما بال هذا الفتى الأرمـد يدعى ما ليس له بأهل ؟

وفرقع الناظر الحديد بسوطه ، فأيقظ القوم ، وباغتهم بقوله :
— أين حضرة المعاون ؟

فاختلط الجمع ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . . .
فاستأنف الناظر صيحته النكراء قائلاً :

— أقول لكم أين حضرة المعاون ؟

فتعالى همس القوم في حيره وتعجب . . .

وبعد لأى برز من بين الصفوف شيخ يخب في زغبوطه ، ورأسه يتظامز تحت عمامة ضخمة ، وتقدم بلحيته المبعثرة ، ووجهه المتغضن يقول :

— ليس لدينا معاون !

فاستنكر الشاب ما بلغ سمعه ، وعاجل الشيخ بقوله :

— ماذا تقول ؟ أضيعة بلا معاون ؟

فأجابه الشيخ ركين اللهجة :

— عشنا لا نعرف رجلا له هذا اللقب !

فارتفعت جعجعة الشاب وهو يقهقه ، وفرق ثانياً بسوطه ، قائلاً :

— علىَّ بأمين المخازن . . .

فغض الشيخ من بصره ، وجعل يفرك يديه ، قائلاً :

— وهذا أيضاً لا وجود له !

— أترعون أنكم لا تعرفون رجلا له هذا اللقب أيضاً ؟

— صدِّق أننا لا نعرف له من وجود !

فاحتقن وجه الشاب ، وصاح في صوت الثائر المحق .

— ومن عنده مفاتيح المخازن ؟ أتدعون أنكم لا تعرفون للضيعة مخازن

ولا مفاتيح ؟

فشخص الشيخ ببصره ، قائلاً :

— هون عليك يا بني . . . في الضيعة مخازن لها مفاتيح ، ولقد كانت

في حوزة الناظر المرحوم ، أتريد أن تتسلمها ؟ إنها أمانة عندي . . .

— وأنت . . . من تكون ؟

— أنا شيخ الجامع .

فبعث الشاب من حلقه صيحة ساخرة ، وقال :

— ما شاء الله كان ! . . . مفاتيح المخازن بيد شيخ الجامع . . . هاتها

يا رجل !

فانصرف الشيخ ليأتى بالمفاتيح ، وطفق الناظر يذرع الارض جيئة وذهوبا ،

وهو يتلفت حوله تلفت المتعص المسمئر ، وجعل يغتم .

— فوضى ! . . . فوضى ! . . . يبدو لي أنه لا بد أن أنشئ الضيعة

إنشاء جديداً . . .

ثم صاح بالجمع قائلاً :

— أليس في الضيعة موظف مسئول ، أستطيع أن أفهم منه ما أريد ؟

ألم يكن للضيعة كاتب ؟

فخرج من الصفوف شيخ نحيل يتحامل على نفسه ، وقال :

— كان المرحوم يدعوني أحيانا لأقيد له بعض حساب الضيعة . . .

فجار الناظر يقول فى ههكم :

— الحمد لله . . . وجدنا أخيراً من نسأله !

وراح يلاحظ الرجل بالنظر الشرر ، ثم أشار إليه قائلاً :

— تقدمنى إلى الادارة نتصفح الدفاتر . . .

وهناك فى حجرة بالغة السذاجة ، دخل الرجلان ، فتلفت الناظر يبحث عن مجلس له ، فلم يجد إلا دكة متخلعة ، ورفاً عليه بعض الأوراق والدفاتر تعلوها غبرة ، فاستكف أن يجلس ، ونبت واقفاً يقلب تلك الدفاتر والأوراق ، ويلقى عليها خواطف النظرات ، ثم يقذف بها يمناً ويسرة فى تأفف وازدراء . . . وبينما هو كذلك إذ هرول إليه شيخ الجامع يحمل حزمة من مفاتيح ضخمة ، فقدمها إليه ، وما إن أبصرها الناظر الشاب حتى صاح مقهقهةً :

— مفاتيح من خشب ؟ . . . فى اى زمن تعيشون ؟

وازورّ ببصره عنها يذرع الحجرة ، مهتاج الخطوات ، ثم وقف أمام الرجلين يحدق فيهما برهة ، وقال :

— سترى الضيعة عجباً . . . لأنقلها من عهد ضلالة وظلام ، إلى عهد حضارة ونور . . .

وعلا ييده على جبينه يعتصره ، ثم صاح قائلاً :

— على بشيخ الخفر . . .

فظأطاً الشيخان رأسيهما ، وأمعنا فى فرك أيديهما . . .

ولما طال بهما الصمت ، صاح الناظر ، وقد بلغت به الحيرة والعجب كل مبلغ :

— أتجسران على أن تدعيا أن ليس فى الضيعة خفراء ؟ حراس ؟

فارتفعت عمامة شيخ الجامع ، وتجلى محياه المغضن تكسوه طمأنينة الايمان . . .

ثم همس بقوله :

— الحارس هو الله !

ففرق الناظر بسوطه فرقة ربيع لها الشيخان ، وبصق وبصقه هوجاء ، وانفتل من الحجرة كالسهم المارق . . .

اعتكف الناظر الجديد أياماً فى مشواه لا يريه ، وهو منكب يدبج تقريراً مسهباً فى شان الضيعة وما تقتقر إليه من خطة الإصلاح ، انتشالا لها مما هى مترديه فيه من فوضى وخراب .

وقد ترادفت في تقريره كلمات لم ير بدءاً من الإلحاح في بيانها ، والاشادة بأثرها ، من مثل : « تحديد المسؤولية » ، و « تعيين جهات الاختصاص » ، و « توزيع السلطات » ، و « تعزيز السلطة التنفيذية » .

وخلص من ذلك إلى أن أول ما يجب القيام به هو إنشاء قوة خفر نظامية تكون عوناً للسلطة التنفيذية على الاضطلاع بمهامها الجسام ، والضرب على أيدي من تحدتهم أنفسهم بالوقوف في طريق الإصلاح والتعمير . . .

وبعث الناظر الشاب بتقريره إلى رب الضيعة في العاصمة ، ونهض يستنشى نسيم الراحة والاستجمام ، كأنما يعد نفسه لذلك العمل الجبار الذي رسم خطته في تقريره العظيم . . .

قضى الناظر أسبوعه الأول منهمكا يفكر ويدير ، لتحقيق أول خطوة في خطة الإصلاح ، تلك هي إنشاء قوة الخفر . . .

وكان أول ما عني به اختيار زى للخبراء الجدد يوفر لهم المهابة المنشودة ، ويميزهم عن سائر خلق الله . . .

وما إن اطمأن إلى الزى حتى شرع يعرض فتيان الضيعة الأشداء ، ويصطفى من ينجحون في اختبارات السيكولوجية لمعرفة حدة الذكاء ، وقوة الشخصية ، وما أوتوا من مواهب في الضبط والربط وسعة الحيلة .

وبعد أن بلغ من ذلك مأربه ، وتخير جمعاً من الفتيان توافرت لهم كل تلك الشرائط ، راح يفكر أيهم يؤمره عليهم شيخاً ، وجعل معوله في الاختيار على قوة بصيرته التي يعتز بها وينزهها عن الزلل ، فوقع اختياره على فتى لم يكن أقدر الجمع ولا أسنهم ، وإنما هي قوة بصيرة الناظر الشاب رأت فيه ما لم ير سائر الناس .

ووقف الناظر أمام صف الخبراء ، فجذب إليه ذلك الفتى المحظوظ ، وصاح به : — لقد اخترتك شيخاً للخفر ، فأدرك مهمتك حق إدراكها . . . إن الجندية أساسها الطاعة والنظام دون جدل أو نقاش . . . وعلى كل أن يلزم حده ، وأن يعرف واجبه . . .

وفي اليوم التالي ، تجلّى شيخ الخفر في « الدوار » يزهو ببلدته التي حملت شارة الرياسة ، وفي يده هراوة صلبة فارعة ، كأنها رمح القائد المظفر ، وهو يتخاطر في معطفه السابغ الأدكن ، وئيد الخطأ ، وخلفه شزيمة الخبراء ،

يعلو وجوههم البشر ، وهم معجبون بما يكتسون من زى جديد . . .
وما إن توسط الحفراء ساحة « الدوار » حتى أهل عليهم الناظر الشاب ،
وفى يده سوطه يتلاعب به ، وبدأ يعرض صفهم ، ثم وقف مهلل الوجه ،
تتألق عيناه ، وصاح :
— انتباهاً !

وابتداً معهم حصة التدريب ، فتعالت دبدبة الأقدام ، وتراءت السواعد
تنثنى وتنبسط ، وتحركت الأجسام تعلو وتهبط ، وتعقد الغبار فى الجو كأنما
أثارت حرب ضروس .

وفى أثناء تلك المعمة كان الناظر الشاب يجار بصوته فى الفضاء ، فتردد
أصدائه فى الأرجاء ، إذ يقول :

— إلى اليمين در .

— إلى الأمام سر .

— خطوة إلى الخلف .

— أربعات تشكيل .

— سريعاً قف .

— تعظيم سلام .

وكانت سطوح « الدوار » وأسواره قد عشت على حافاتها زمر من الصبية

تتطلع ، وقد بهرها ما ترى من منظر عجيب !

لبث الناظر يمارس التدريب ساعة من نهار ، ثم استخلف مكانه شيخ الحفر
يواصل العمل على النحو المرسوم . . . وانصرم النهار وشيخ الحفر مجد فى
تدريب فرقته ، لا تهدأ له حركة ، ولا يخفت له صوت .

وراح إلى داره فى غيوب الشمس ، متشقق الحلق من متابعة الضجيج
والصياح ، منهوك القوى تكاد تنفصم ركبته من طول الانشاء والدوران . . .
ولكنه على الرغم من ذلك أقبل على الدار مشرباً ملتمع العين ، فاستقبلته
زوجه ، والتف حوله بنوه يتحسسون معطفه ، ويتواثبون عليه تطلعاً إلى
لبدته ذات الشارة الحمراء !

فطفق الرجل يتحدث إلى زوجه فى مهام منصبه ، وكيف أن الجندية
أساسها الطاعة والنظام . . . وما لبث أن بدا فى إشاراته وحركاته ونبرات

صوته محاكياً ناظر الضيعة الجديد . . . وجعل يدس في أحاديثه تلك الجمل الرنانة والألفاظ البراقة التي صاغت سمعه أول مرة في هذا اليوم ، من مثل : « أربعاء تشكيل ، خطوة إلى الخلف ، تعظيم سلام » . . . فكانت أسرته تصغى إليه في نشوة ، والعيون إليه رانية !

ولما حضرت صينية العشاء ، وتحلق حولها الجمع ، مفترشين الحصر ، أبى رب الدار إلا أن يحضروا له مقعداً يرتفع به عن أديم الأرض ! . . . استنفذ تدريب الخفر جهد الناظر كله ، فكلما فرغ من جانب عرض له جانب جديد . . .

وكان لايسير في الضيعة أو يجوس خلال الحقول إلا مستصحبا شردمة من أولئك الخفراء المدربين ، تتقدمه أو تقفوا خطاه .

فأما شيخ الخفر فظل يتلقى تعاليم الناظر في شأن مهمته ، وينهمك في تنفيذها بين مرءوسيه في همة ومضاء . فاذا أتم عمله ، واتخذ سبيله إلى داره ، أحس الأعين ترمقه بنظرات خشية وتهيب ، ويرى الصبية لا يكادون يلحقون شبحه حتى يلوذوا بالفرار مخلين له وجه الطريق !

ويوماً وهو يدرّب فرقته ، لم يرض عن أحد الخفراء ، ورماه بالتقصير ، وجاوز في تعنيفه الحد ، وكان الخفير أسن منه وأصلب عوداً ، فلم يعتم ذلك الخفير أن أغلظ له في القول ، وما هي إلا أن هجم عليه شيخ الخفر وهوى على صدغه بلطمة شديدة ، وسرعان ما التحم الخصمان ، واستبد بهما العراك . و انتهى إلى الناظر الخبر ، فقدم على عجل ، وفرق بين المتصارين ، ثم لم يلبث أن أصدر أمره بفصل الخفير فصلاً مشمولاً بالنفاذ ، لأنه خالف أول مادة في قانون الجندية ، وهي الطاعة والنظام ، دون جدل أو نقاش . . . وتقدم إلى الصف ، فاتزع الخفير منه ، وجردّه من شارة الخفارة ومن زيهما الرسمي ، كما يجرد القائد جنديه المتمرد من شاراته ، وينزع منه ما معه من السلاح !

مضى الخفير الطريد مهبط الجناح ، يتضرم قلبه حقداً وضغينة . وفي جوف الليل أمام النار المتقدة التف بعض الخفراء يصطلون ، ويخوضون في حادثة النهار ، فقال أحدهم :

— ليس من حق شيخ الخفر أن يصفع واحداً منا . . .

فأجابه رفيق له :

— ولكنهم يزعمون أن الطاعة أساس الجندية الصحيحة . . .

فصاح ثالث :

— مهما يكن من أمر ، فما يجوز لأحد أن يهين خلقه الله . . .

فقال الأول :

— الحق أن شيخ الخفر جاوز الحد ، وأنه صال واستطال ، مع أنه ليس

أهلاً لمنصبه ، وأنه ليس فينا من يقل عنه اقتداراً وقوة . . .

فقال الثاني :

— حقاً خدع الناظر في شأنه ، وسينتبه إلى خطئه في اختياره . . .

فقال رابع آخر ، وكان برأيه ضئيلاً :

— لا تنسوا أن راتب شيخ الخفر ضعف راتب الخفير ، على حين أنه

ليس له من عمل إلا الجعجعة والتأمر .

ولمجمع شبعاً في الطريق ، فسكتوا يتبينون شخصه ، فإذا هو الخفير

الطريد ، فدعوه إلى الجلوس ، فاستجاب . . .

وكثر بينهم همس ، تخلله فحيح الكيد والدس . . .

تقضت أيام لم يجزؤ فيها أحد على أن يطالع الناظر بشكاة ، أو يرفع إليه

ظلامه ، ولكن الضيعة عاشت هذه الأيام تحت ستار من الأسرار . . .

وتواصل العمل في تدريب الخفراء بهمة ونشاط ، وأحسن شيخ الخفر

سطوة سلطانه ، فازداد من صلف وعتو ، وتتابعت منه صنوف الاهانات من

ركل وصفع وطرد ، يسخوبها على مرءوسيه في تحن وتقول وادعاء ، واجداً من

ناظر الضيعة ظهيراً يواليه بالرضا والتأييد . . .

وسرت بين سكان الضيعة هيئة شيخ الخفر وجاهه ، فتقرب إليه الناس

جماعات ، وخصوه بأنواع الزلفى ، وأصبح بيته مقصداً لطلاب الشفاعات في

شئون الضيعة وما يتصل بإدارتها ، ومرفأ لكثير من الهدايا والاتحافات من

خيرات الريف ! . . .

ومرة غف الناظر بشيخ الخفر ، في بعض الأمور ، فلم يرقه ذلك ، وبدت

عليه بوادر التمر ، ونسى في غشية الزهو والسلطة أنه بين يدي رئيسه ،

وتضاءلت في مخيلته تلك الحكمة القائلة بأن الطاعة أساس الجندية .

وانتهى الأمر بالناظر وشيخ الخفر إلى جفوة تطاير غبارها وتسامع بها الناس .

وما أسرع أن تهاوت الظلامات تصابح الناظر وتماسيه ، مهية به أن يضع حداً لذلك الجبار العنيد الذى عاث في الضيعة فساداً .
وفكر الناظر في أمر شيخ الخفر طويلاً ، وأسلمه التفكير إلى رأى حاسم ، هو إحالة ذلك الرجل إلى مجلس تأديب . . .

وانعقد المجلس ، فتولى الناظر رياسته ، متنفخاً في جلسته ، وعن يمينه شيخ الجامع يروح تحت ثقل عمامته ، وعن يساره ذلك الشيخ الذى يقوم بأعمال الكتابة في الضيعة ، تكاد تخطئه العيون لضموره وانكماشه .

وبدت السين والجيم تتقاذف بهما الألسن في تلك الحجرة المعمة المتهمة التى يكاد سقفها يخر ، وقد وقف التهم يحاصره جمع من الشهود . . .

ونصل ضوء النهار ، وما برحت المحكمة جادة تحقق وتناقش ، وقد اختنق الحو بالأنفاس ، وتخلب العرق من الجباه ، وبدا الناظر محتقن الوجه ، مضطرب العينين ، ففك أزرار قميصه ، وشمر كفيه ، وهو منخرط في عمله يهيمن على نظام الجلسة ، ويلقى اشتاتاً من الأوامر والنواهي في حمية وحاسة . . .

وأخيراً رأى رئيس الجلسة أن يختل بنفسه ، ليصدر حكمه في قضية اليوم ، فأمر باخلاء المكان . . .

وبعد هنية أذن للجمع في الحضور ، لإعلان الحكم ، فاعتصمت الحجرة بوافديها ، وتجمع الناس حولها يسدون منافذها ويرهفون الأسماع .

وما هي إلا أن اعتلى الناظر مقعده ، ووقف يقرأ ورقة في يده ، وبعد أن أشبع نهمه من تكرار : « من حيث إن . . . » أعلن حكمه القاضى بفصل شيخ الخفر وإلزامه دفع غرامة جسيمة . . .

فدوّت في الحجرة ضجة عارمة ، وتعلت أصوات تهتف بحياة العدالة ، وأخرى تهتف بسقوط الطاغية البغيض !

واخترق الناظر زحمة الناس ، وهو يضرب الأرض بخطا ثقلاً ، ويتلاعب بسوطه في احتياج ، وقصد إلى منزله مزهو النفس ، ولكنه ما كاد يبلغ المقعد حتى ارتدى عليه منسرق القوى .

وسهرت الضيعة ليلتها تتحدث في شأن من يخلف شيخ الخفر المعزول ،

فتحلقت الجماعات على المصاطب ، واختلطت الأصوات في مجادلة وحوار ، تحاول كل فئة أن ترشح من تهوى ، وتعمل على إحباط غيره من المرشحين لهذا المنصب الخطير الذى تعرفت الضيعة مكانته وأثره في التسلط والاعتنام .
وتسللت الأشباح زرافات وفرادى إلى بيت الناظر ، يطويهم الباب في مسطرة وحذر .

وظلت حجرة الناظر تبعث شعاع مصباحها حتى جوف الليل ، وطيف الناظر يتراءى وراء النافذة في جيئة وذهوب . . .

وبكر الناس في رونق الصبح يتجمعون تجاه البيت مرتقبين مهبط الناظر ليروا ماذا بيت من رأى في اختيار شيخ الحفر الجديد . فما إن لحوه مقبلاً حتى تكأ كأت عليه الجموع تستخبره في تعريض وتلميح . فمضى عنهم مشمخر الأتف ، محتفظاً بالسر العظيم !

وقصد الحجرة التى كانت أمس محكمة الفصل في قضية شيخ الحفر ، وهناك أعلن على الملأ أنه قد تخير الحفير الطريد شيخاً للحفر ، فكأما رمى بذلك إلى أن ينصف مظلوماً هضم حقه الشيخ المفضول ، حتى يطمئن الناس إلى أن العدل أساس الادارة في عهد ناظر الضيعة الجديد ومخرجها من حال إلى حال .

وما كاد الناظر يعلن ذلك حتى تبدت علائم الدهشة على الوجوه ؛ فما كان في حسان أحد أن يقع الاختيار على ذلك الحفير الذى طرد من قبل . . .
ولقد رشحت كل جماعة واحداً ، فلم يكن ذلك الرجل أحد المرشحين جميعاً . . . وظل الهرج والمرج ينتهب الجموع ، حتى فرقع الناظر بسوطه ، فتراجع الناس ، وثاب إليهم الهدوء .

واكتسى الشيخ الجديد معطفه السابغ ، وسوى على رأسه لبدته ذات الشارة الحمراء ، وأخذ بيده الهراوة الفارعة . . . وسرعان ما شهدت ساحة « الدوار » ثانية جمع الحفراء يزاولون التدريب ، وتجاوبت الأرجاء بالكلمات الخالدة :

— إلى اليمين در .

— إلى الأمام سر .

— سريعاً قف .

— تعظيم سلام .

وآب شيخ الخفر الجديد إلى بيته ، يومئذ بالتحية يمنة ويسرة لمن وقفوا له ؛ وما كاد يلج باب الدار حتى استقبلته حشود من القصاد يحملون له الهدايا والطرف ، ويعاجلونه بعبارات التهئة والدعاء .

وتواردت الأيام تروع شيخ الخفر المفضول بألوان الاضطهادات والاهانات يتقصده بها شيخ الخفر الجديد ، يؤازره أصحاب الثارات والأحقاد ممن كان يطفئ عليهم الشيخ الأول إبان حوله وطوله .

وتبدلت حال شيخ الخفر الجديد ، فترأت في بيته أنعم طارئة ، وعرف طريقه طلاب الحاجات والشفاعات ، والتف حوله الشيعة والأنصار . . .

وأصبح منصب شياخة الخفر ذائع الصيت ، قوى النفوذ ، يجتذب يلائه النواظر ؛ فهفت إليه القلوب ، وتعلقت به الهمم ، وتكاثرت حوله الأطماع . . . وريعت الضيعة مرات بأحداث السرقات ، وتقليع الزروع ، وتعريق الحقول . وما إلى ذلك من ضروب الكيد والايذاء . . .

وتوالت على بيت الناظر عرائض الشكاة والاتهم ، تمس شيخ الخفر وترميه بكل نقيصة شنعاء . فكان الناظر يقضى ساعاته الطوال يتصفح تلك العرائض ، ويذيلها بملاحظاتة وتقريراته ، مجتهداً في الموازنة والتأويل والاستخراج . . .

واستيقظت الفتنة في قلب الضيعة ، وتبادل الناس الخوف والحذر ، وتسلسل التباغض إلى جماعة الخفراء ، فاقسموا على أنفسهم شر انقسام ، وراح يكيد بعضهم لبعض . فتفطن شيخ الخفر إلى ذلك كله ، وخشى سوء المغيبة ، وتمثل مصير سلفه ، فاتخذ للأمر أهبة ، وجعل يتحوط ويتحفظ ، وتذرع بشتى الوسائل ، من بث للعيون ، وإغراء بالغنائم ، وجبك للمكايد ، وتأليب لنفر على نفر ، حتى يحتفظ بمنصبه ، ويقبض على نواصي الأمور . . .

وآنس الناظر وميض النار خلل الرماد ، فضاعف عدد الخفراء ، وظهر في الملا يحمل إلى جنبه غدارة ضخمة ، يكف بها خائنة العيون !

وكان في كل فرصة تلوح له ، يؤكد أنه لن يألو جهداً في إقرار الهدوء والنظام ، فلا نجاح لعمل إلا في ظلال الأمن والسلام !

وليلة هب الناظر من رقادته قبيل السحر مدعوراً ؛ إذ أنهى إليه بعض

الخفراء أن سطوا وقع على بت شيخ الخفر ، وأن البحث جار عن المعتدين حول منازل شيخ الخفر المفضول وبصرائه !

وما إن أتم الخفير قوله ، حتى سمعت ضجة عنيفة ، وتتضارب بالعصى لغلاظ ، وقد انطلقت أصوات النساء في ولولة وتصايح وانتحاب . فأسرع الناظر يرتدى ملابسه ، وهرب إلى مساكن الضيعة ، فألقى الثورة في عنفوانها ، والمركة تدور رجاها حامية الوطيس . فافتحم الزحام في جراءة وإقدام ، وراح يزار بصوته ينهى ويأمر . فلم يعبأ به أحد ، وذاب صوته في حرارة العراك والمطاحنه ، وأراد أن يستنجد بغدارته فما كاد يمسكها في يده حتى وجدها قد افلتت منه ، وذهبت أدراج الزحمة والاختلاط !

وأحس الجماهير تعتصره وتضغظه ، فحاول ثانية أن يصرخ ، فتعثر صوته في حلقة ، فأراد أن يفزع إلى أعوانه من الخفراء والحراس ، فلم يجد أحداً فارغاً له ، كل منهم بنصيبه في المشاجرة مشغول . وضاعت به وجوه الخيلة ، فتراجع نجاء بنفسه مما لا تحمد عقباه ، فادا به عن كذب من فئة تتضارب بالهراوات في عنف وهوج . وما هي إلا أن اندمج في هذه الفئة ، وقد تعاورته ضربات فخر مشختاً بالجراح .

وفي مرتفع النهار ، شمل الضعة خمود وتخاذل وانهار . . . ثمة أناس داخل الأكواخ وخارجها طحتهم المركة وأدمت أوصالهم ، فهم يلمون شعهم ويعالجون جراحتهم . . . وثمة أمتعة مبعثرة أمام الدور ، وأقناص ماتهدم من جدران بجوس خلاها الكلاب متشمة في خوف وحذر . . .

وفي صبيحة غد شوهده شيخ الجامع يحوب الصيعة ، مستعيذاً بالله ، ملتصقاً منه اللطف في قضائه . . . وكان يمر بالدور لما يعود طرْحاً أه يواسى جريحاً ، ويهدى ثائراً أو يشاور دا راى من الأشياء . . .

وأدى به المطاف الى ادارة الضيعة ، فما إن رآه الشيخ الذى يتولى كتابة الحساب ، حى ألقى إليه مفاتيح الخازن ، فاذا هي هي تلك الحزمة الضخمة من المفاتيح الخشبية ، وقال وهو يسلمها له :

— أبقيها معك يا مولانا الشيخ ، ريثما يتم تعيين الناظر الجديد !